الجيش المصري

والاستكشاف في أفريقيا

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

— ٢ —

اقليم هرر

اذا تحوّلنا من بلاد الصومال الى مديرية هرر التي زارها الرحالة الانجليزي برتون R. F. Burton بين عامي ١٨٥٤ و١٨٥٥ وجدنا ان النتائج العلمية التي حصل عليها كانت قليلة جدًّا ولا يصحّ الاعتماد عليها ويمكن ان نتحمل بعض الاعذار لهذا الرحالة فنقول ان الاحوال التي احاطت به أثناء اضطلاعه برحلته جعلت اقامته في هرر لا تزيد على عشرة أيام. ثم انه تعذّر عليه ان يستعمل من اجهزة البحث الا بوصلة الجيب وساعة وثرمومتر ومع ذلك فقد أفادت له بعض الفائدة [١] ويحتوي كتاب برتون بجانب تخطيط عام لهرر على خارطة اخرى لا قيمة لها البتة من الناحية الجغرافية تبين الطريق الذي سلكه الى هرر. وقد كان الموقع الذي أثبته لمدينة هرر أصح من الموقع الذي اثبتهُ هاريس واعوانه الذين قاموا برحلة الى شوا [٢] او الرحالة كراتندن [٣]

ولقد ظلّت مهمة الفوز بمعلومات صحيحة عن داخلية تلك البلاد شاقة جدًّا زمناً طويلاً لغيرة الاهالي الوطنيين وتعصبهم. فكانت المعلومات المكتسبة مبنية على التخمين والرواية وليست مؤسسة على التحقيق العلمي. وظلت الاحوال على هذا المنوال مدة عشرين عاماً عقب زيارة برتون. ولم يحاول احد خلالها ان يقوم بفتح داخلية البلاد حتى ظهر المصريون وأفلحت جهودهم في عام ١٨٧٥ وحينذاك سهل القيام بالرحلات. فتجمعت تدريجيًّا المعلومات والنقط الرئيسية للارشاد وللمرة الاولى عملت خارطات لاقليم كان بالامس مجهولاً تماماً. واستطاع

(١) R. F. Burton. First Footsteps in East Africa. London 1856. p. 62
(٢) W. C. Harris. Highlands of Aethiopia, 3 Vols. London 1844
(٣) C. J. Cruttenden. J. R. G. S. Vol XIX. 1849 pp. 49-76, also-J.R.G.S. Vol. XVIII, 1848. pp. 136—139.

الضباط المصريون بقيادة البكباشي مختار ان يزحوا بسلهم الانساني فانتشلوا هرر من الظلام الجغرافي الدامس الذي رقدت فيه قروناً كاملة

لقد وصل المصريون الى تاعجهم الباهرة التي لم يصل اليها أحد من قبل لانهم كانوا يشرفون على ادارة تلك الاقطار ولانهم كانوا ايضاً يتمتعون بمزايا لم يتمتع بها غيرهم من المستكشفين . وقد استفادوا من تلك المزايا بدليل النتائج الغزيرة التي حققوها والتي نراها أمام أعيننا اليوم

ففي عام ١٨٧٦ بعد ان انتهى البكباشي محمد مختار من جولاته لاستكشاف بلاد الصومال[١] نشر مع زميله فوزي باللغة العربية الخارطة الاولى لهرر والبلدان المجاورة . وقد ظهرت في مجلة اركان الحرب . وكتب ايضاً الضابط فوزي مقالاً طويلاً عن نتائج أعمال الكشف الذي قام به المصريون في مقاطعات شعوب العيسي وجالا وهرر[٢] . وتمتاز الخارطة المذكورة بدقة ما احتوته من الحقائق كالمحطات المهمة والمدن وطرق التجارة ومقاطعات القبائل وأهم اوصاف الارض الطبيعية ومعالمها[٣] . وفي هذه الخارطة أثبت موقع هرر كما يأتي :

٤٨° ٢٢′ ٩٠″ من خط العرض و ١٥° ٢٠′ ٤٢″ من خط الطول[٤] . واثبات هذا الموقع لا يختلف الا بضع دقائق الى الشمال ومثلها الى الشرق عن موقعها الجغرافي الذي أثبت أخيراً بغاية الضبط كما يختلف شيئاً قليلاً عن الموقع الذي أثبته رءوف باشا في تقريره عن مدينة هرر وضواحيها[٥] ففي تقرير رءوف باشا أثبت موقع المدينة على خط عرض ٢٠′ ٩٠° شمالاً و ٤٢′ ١٧° طولاً كما أثبته برتون . ولكن لم كان الاختلاف بين تقرير القائد العام للحملة الى هرر وبين تقارير ضباط هيئة اركان حربه ؟ هذا مما صعب فهمه

والخارطات الهامة الاخرى التي أحرز فيها مختار وفوزي نجاحاً باهراً خلال الاعوام الاولى للاحتلال المصري هي أول تخطيط عمل لمدينة هرر (١٨٧٦) وقد بيّنا عليه أسوار المدينة وأبوابها وقلاعها وأهم الايضاحات الطبوغرافية ورسما قطاعاً واضحاً يقطع المدينة في اتجاه شمالي جنوبي تقريباً[٦] وهذا الرسم (قياس $\frac{1}{1000}$) يعتبر عملاً فائقاً من الطراز الاول من ناحية التفاصيل الموضحة عليه ومهارة العمل ودقته اذا قوبل بأي عمل آخر تم فيما بعد لهذه المدينة

(١) راجع الخريطة التي كتبها البكباشي مختار على استكشافه في بلاد جادبيورسي الملحقة في العدد السابع من القسم الاول من مجموعة الجمعية الجغرافية (٢) مجلة اركان الحرب — السنة الثالثة — المجلد ١ — الجزء ٥ — القاهرة ١٨٧٧ ص ٣٨٥ — ٤٠٠ وجزء ٦ ص ٤٦٢ — ٤٧٩ (٣) أحمد فوزي — وصف عمل الاستكشاف في العيسي والمالا وهرر — مجلة اركان حرب — السنة الثالثة ١٨٧٧ — المجلد ١ جزء ٥ ص ٣٩٢ . ومحمد مختار — الجمعية الجغرافية — ملاحظات عن مقاطعة هرر — السلسلة ١ — ص ٣٦١

(٤) في هذه الخارطة يعتبر خط الطول المار بباريس صفر (٥) رءوف باشا : تقرير عن مدينة هرر وضواحيها — مجلة أركان حرب ١٨٧٦ — السنة الثالثة : المجلد ١ — جزء ١ ص ٤٤

(٦) محمد مختار واحمد فوزي : خارطة مدينة هرر عام ١٨٧٦ — مطبعة اركان حرب العامة — القاهرة ١٨٧٧ — مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٧٧ — السلسلة ١ رقم ٤

ونذكر ايضاً في هذا الصدد — الخارطة العربية — لبلاد الصومال التي رسمها الضابط فوزي وعرضها في المؤتمر الجغرافي بالبندقية عام ١٨٨١ (٢) . لكن مما يؤسف لهُ ان تلك الخارطة قد فقدت . ومن المحتمل ان تكون قد أودعت في مكان وظلت فيه منسية مجهولة

عود الى الصومال وبربرة والحبشة

وقبل اختتام هذا البحث نعود الى ذكر بعض الاعمال الجغرافية التي قام بها الضباط المصريون في افريقيا . فقد رسم الملازم الاول عبد الرزاق نظمي وكثير من زملائه من ضباط اركان حرب الجيش ميناء بربرة وضواحيها الى جبل دوبار . وكان المستر « سدني أنسور » مكلفاً اتمام البحث فيما يختص بانشاء سكة حديد بين بربرة والقاشر

ولما نشبت الحرب بين مصر والحبشة (١٨٧٦) رسم بعض ضباط اركان الحرب برآسة الامير الاي لوكيت عدداً كبيراً من الخارطات التفصيلية للبلاد الحبشية ورسموا خارطة عامة للبلاد الواقعة بين مصوع وهضبة الحبشة . ويعتبر هذا العمل من أهم وأفضل ما اشتغلت به هذه الجماعة المنتخبة من اكفاء الضباط المصريين . كما حقق البكباشي عبد الله فوزي (باشا) حدود الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ثم رسمت خارطتها (٣)

وفي عام ١٨٧٨ عهد الخديو اسماعيل الى الكولونيل جريفز (Col. Graves) والقائمقام محمد مختار بارتياد شواطىء الصومال على المحيط الهندي لاختيار موقع يقام فيه فنار لارشاد السفن فخطط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردوفوى (٣) وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجري فيه الماء العذب . لكن لم ينشأ الفنار لانتهاء حكم اسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩ . وفي عام ١٨٨٠ كان الامير الاي محمد مختار قد جاب نواحي السودان الشرقي لما كان رئيساً لأركان حرب السودان يصحبه من ضباط خليل بك فوزي والملازمان محمد خير الله وعلي خيري وقد نشر بحثاً مسهباً في تخطيط أبو حراز والقضارف (ابوسن) والقلابات وطوماث واميديب وغيرها من مدن السودان الشرقي (٤)

الاعمال الحديثة

ونتجه الآن لدراسة آخر اعمال الخرائط التي انجزها الضباط المصريون في هرر التي تعتبر تقدماً باهراً على الاعمال التي سبق عملها بمعرفة مختار وفوزي وغيرهما : ففي أواخر عام ١٨٨١ مسحت هرر وملحقاتها من جديد بتفصيلات متقنة وايضاحات اكثر مما جاء في المحاولات التي تمت من قبل

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٨٢ — السلسلة ٢ — رقم ١ — ص١ — ٢١ (٢) عبد الرحمن الرافعي — عصر اسماعيل — ص ١٧٩ (٣) مجلة الجمعية الجغرافية المجموعة ١ عدد ٩ (أخطىء — نوفمبر ١٨٨٠ ص ٢٩) (٤) مجلة الجمعية الجغرافية المجموعة ١ عدد ١١ — فبراير ١٨٨١ ص ٥

وقد قام بهذا العمل البكباشي أحمد وعدي والملازم الاول عبد الكريم عزت . وكانت مصر في ذلك الحين قد أخضعت بعض قبائل من الوطنيين الذين لم يقبلوا التسليم في بادىء الامر . وكان كلما اتسع الافق السياسي امتدت أعمال الكشف وازدادت . ولذلك جاءت الخارطات الجديدة بطبيعتها اكثر استيفاء للمعلومات من سابقاتها او التي اعقبتها وامتازت في احوال عديدة في ذلك الوقت الذي عادت فيه هرر الى حكم أمرائها السابقين واخلاء المصريين لتلك البلاد (١٨٨٤ — ١٨٨٥) وأخيراً لما أصبحت هرر تحت الحكم الحبشي (١٨٨٧) . ففي خلال عامين كان عمل الضابطين وعدي وعزت قد تم . ويمكن الاطلاع عليه في مجموعات خارطات الجمعية الجغرافية . وقد عرف « بولتشكي » قيمة تلك الخارطات العلمية والجغرافية واثنى على العمل الفني الذي اضطلع به الضباط المصريون في هرر كما أنهُ امتدح جهود الضباط مختار وفوزي وعزت[1] وبينما كان هؤلاء الضباط النابهون يقومون باكتشافاتهم كان الجنرال ستون[2] يشرف في القاهرة على رسم خارطة كبيرة شاملة للاملاك المصرية قياسها ـــــ . وكان الغرض من انشاء هذه الخارطة جمع النتائج المتحصلة في خلال ثماني عشرة سنة انقضت كلها في الفتوحات والاستكشافات والمباحثات والمراجعات . وقد كتب عنها الجنرال ستون : — « ان مسطح الارض التي شملتها تلك الاعمال يعادل مجموع مساحة فرنسا وامبراطوريتي المانيا والنمسا . وقد قضت هذه الاعمال على حياة ضابط وعالم ألمانيين واثنين من الفرنسيين ومثلهما من الاميركيين ومثلهما من الطليان ومثلهما من المصريين وجميعهم استشهدوا في سبيل الاخلاص للعلم . هذا غير من اختارهم الموت من « الجنود البواسل الذين رافقوا الضباط وأهل الريادة . فانهم لقوا حتفهم في تلك البلاد المجهولة مثل زملائهم الذين صحبوا البعثات العلمية المحضة ايضاً »

وليس في وسع احد ان يتجاهل ما كان لمصر من شأن المتقدم وفضله في ميدان الاستكشاف الجغرافي في بلاد الصومال وافريقيا الشرقية وجميع انحاء السودان وصحاري مصر[3] . وهذه الاعمال الخالدة صفحة مجيدة تفاخر بها كل أمة حية . وهي جهود اعوام متتالية كما وصفها الجنرال ستون قامت كلها على أكتاف الضباط المصريين في صمت وهدوء وتواضع وكفاح مع الامراض المتوطنة في تلك الاقاليم البعيدة والتي كانت في يوم من الايام قطعة من أرض الوطن

(١) Paulitschke. pp. 575—591

(٢) هو شارلس بوسوي ستون رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري من عام ١٨٦٩ الى عام ١٨٨٢ . وقد كان كولونيلاً في الجيش الاميركي عندما استقدمه الخديو اسماعيل باشا لرآسة بعثة عسكرية اميركية لاصلاح الجيش المصري كما ذكرنا في صدر المقال . راجع مقالة اباته باشا بعنوان الجنرال ستون ومقالنا بالمقتطف ج يوليو بالمجلد ٩١ ص ٢٠٢ — ٢٠٨ (٣) من مقال الاستاذ حسين بك رئيس قسم الجغرافيا بالجامعة المصرية وكان اقتبس مرجع لك في كتابة هذا الموضوع